الحِجَاجُ في الْخِطَابِ الشِّعْرِيِّ الفاطِميِّ.

أحمد صلاح محمد كامل

المدرس المساعد بقسم اللغة العربية بكلية الآداب– جامعة المنيا.

الحجاجُ من أهمِّ عناصرِ المنهجِ التداوليِّ، لذلك حظي بجهودٍ كبيرةٍ من الدارسينَ، وظهرَ ذلك من خلالِ الدراساتِ والأبحاثِ التي خصصت له، فاهتموا بالتنقيبِ عن آلياتِه، وكذلك الربطُ بينَه وبينَ السياقاتِ المقاميّةِ المختلفةِ، وبذلك أصبحَ الحجاجُ أداةً لمناقشةِ الأفكارِ، وهو من الآلياتِ المهمةِ في محاورةِ الأطرافِ المشتركةِ في عمليةِ التواصلِ، والهدفُ من ذلك هو التأثيرُ أو الإقناعُ أو الحوارُ أو مناقشةُ الآراءِ المطروحةِ بالتشكيكِ في صحَّتِها أو معارضَتِها أو تأييدِها، فنجاحُ الخطابِ يكمنُ في مدى مناسبتِه للمتلقي ومدى استخدام التقنياتِ الحجاجية على تحقيق الإقناع، فضلًا عن استثمارِ المكونِ النفسيِّ في المتلقي من أجلِ تحقيقِ التأثيرِ المطلوبِ، ومن هنا يطرحُ الباحثُ بعضَ الأسئلةِ أهمُّها: ما مفهومُ الحجاجِ لغةً واصطلاحًا؟ وما أهمُّ مصطلحاتِه؟ وكيف نحلِّلُ خطابًا شعريًا من زاويةِ تعني بالحجاجِ وأساليبِه؟ وهل للخطابِ الشعريِّ أن يحاججَ مثل غيره من النصوصِ؟ وإذا حاجج كيف يفعل ذلك؟ ما هي أهمُّ الآلياتِ والأساليبِ الحجاجيةِ في الخطابِ الشعريِّ الفاطميِّ؟ وكيف يمكنُ توجيهُ المعاني الفاطميةِ توجيهًا إقناعيًا؟ وكيف وظفَ الشاعرُ الفاطميُّ معطياتِه من السلالمِ الحجاجيةِ، والروابط الحجاجية، والعوامل الحجاجية داخل خطابهم الشعري؟

أولًا: مفهومُ الحجاجِ.

وفي اللغةِ نجدُ ابنَ منظورٍ في معجمِ (لسان العرب) يشيرُ إلى الحجاجِ بقولِه " الحُجَّةُ هي البرهانُ، وقيل الحُجَّةُ هي ما دوفعَ به الخصمُ، وقال الأزهريُّ: الحُجَّة الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة، وحاجَّه محاجَّة وحجاجًا نازعة الحُجَّة، وهو رجُلٌ محجاج أي جَدل، والتحاج التخاصم، وجمع الحُجَّة: حُجَجٌ وحجاجٌ، وحَجَّه يحجَّه حَجًا غلبه حُجَّته، وفي الحديثِ: فحجَّ آدمُ موسى أي غلبه بالحُجَّةِ"([1])، ويعرَّف ابنُ فارسٍ الحجاجَ في معجمِ (مقاييس اللغة) فيقولُ: "حاججت فلانًا فحججته أي غلبته بالحجةِ وذلك الظفرُ يكونُ عند الخصومةِ والجمع حجج والمصدر الحِجاج"([2])، يستنتجُ الباحثُ أن مادةَ (حَ جَ جَ) تدورَ حولَ القصدِ والتخاصمِ والتنازعِ والجدلِ والغلبةِ، وهذه المعاني تشيرُ إلى أن الحجاجَ عمليةٌ تخاطبيةٌ تواصليةٌ بينَ الباثِ والمتلقي، يحاولُ فيها كلُّ طرفٍ إقناعَ الطرفِ الآخرِ باستعمالِ الحججِ والبراهينِ؛ لكي يستميلَ عقله، ويصلَ إلى إقناعِه لأداءِ فعلٍ معينٍ.

وفي الاصطلاح نجد الحجاجُ عند (بيرلمان) و(تيتيكاه) هو " درسُ تقنياتِ الخطابِ والتي من شأنِها أن تؤدي بالأذهانِ إلى التسليمِ بما يُعرض عليها من أطروحاتٍ، أو أن تزيدَ في درجةِ ذلك التسليمِ"([3])، أي أن المتكلمَ يستخدمُ مجموعةً من الآلياتِ والتقنياتِ والوسائلِ التي تقودُ المتلقي إلى الاقتناعِ والتسليمِ برأيِ المخاطبِ. كما يتميز الحجاجُ عند (بيرلمان) بخمسةِ ملامحَ رئيسةٍ([4]): أولها: أن يتوجَّهَ لكلِّ أنواعِ المتلقينَ، وثانيها: أن يعبرَ عنه بلغةٍ طبيعيةٍ، وثالثُها: مُسَلَّماتُه لا تعدو أنْ تكونَ احتماليةً، رابعُها: لا يفتقرُ تقديمُه إلى ضرورةٍ منطقيةٍ، وآخرُها: نتائجُه غيرُ مُلْزَمَة أي ليست حَتْمِيَّةً. ويرى الباحثُ أنَّ هذه الملامحَ المتعلقةَ بالحجاجِ عندَ (بيرلمان) غيرُ كافيةٍ لإبرازِ البعدِ الحجاجيِّ أثناءَ التخاطبِ، وخاصةً أنَّ النظريةَ الحجاجيةَ استراتيجيةٌ لغويةٌ تكتسبُ بعدَها من سياقِ الخطابِ، ولكن نعتبرهُا مجردَ مقدماتٍ يبني عليها المتكلمُ حججَه وبراهينَه، ليحققَ الإقناعَ ويكسبَ تصديقَ المتلقي له.

تحدث كلٌّ من (أوزفالد ديكرو) و (جون كلود– أنسكومبر) عن نظريةِ الحجاجِ ومفهومِها وآلياتِها من خلالِ كتابِهما l, argumentation dans la langue (الحجاج في اللغة) في عام (1983م)، بوصفِها نظريةً لسانيةً تهتمُّ بالوسائلِ اللُّغويةِ، ونظريةُ الحجاجِ اِنْبثقَتْ مِنْ داخلِ نظريةِ الأفعالِ الكلاميةِ التي وَضَعَ أُسُسَهَا (أوستن وسيرل)، وقد قامَ ديكرو" بتطويرِ أفكارِهما، واقترحَ إضافةَ فعليْنِ لُغَويينِ هما (فعلُ الاقتضاءِ وفعلُ الحجاجِ)"([5])

قد اهتمَّ الباحثونَ العربُ المحدثون – وخاصةً المغاربةَ منهم – بالحجاجِ ومفهومِه ومدارسِه وتقنياتِه وميادينِه المختلفةِ، ومن هؤلاء الدكتورُ (طه عبدالرحمن) الذي حاولَ في كتابِه (اللسان والميزان أو التكوثر العقلي) وضعَ نظريةٍ للحجاجِ، معتمدًا فيها على أصولِ الفلسفةِ والمنطقِ اليونانين، ونجدُه سمَّى البابَ الثاني من هذا الكتابِ بعنوان (الخطاب والحجاج)، ويتحدثُ فيه عن مفهومِ الحجاجِ وأنواعِ الحُجَجِ وأصنافِ الحِجَاجِ، ويعرفُ الحجاجَ قائلًا:" إذ حَدُّ الحِجَاجِ أنَّهُ كُلُّ منطوقٍ به مُوَجَّهٍ إلى الغيرِ لإفهامِه دعوى مَخْصُوَصةً يَحِقُّ له الاعتراضُ عليها"([6])، واستعرضَ (محمد العمري) الحجاج في كتابِه (في بلاغةِ الخطابِ الإقناعيِّ مدخلٌ نظريٌّ وتطبيقيٌّ لدراسةِ الخطابةِ العربيةِ)، فقد أرسى "صورَه المتمثلةَ في القياسِ والمثلِ والشاهدِ، ووضعَ مكوناتٍ وعناصرَ الخطابِ الإقناعيِّ فمنها ما هو خاصٌّ بالخطيبِ نفسِه، من خلال أخلاقِه وثقافتِه وطريقةِ إلقائِه، ومنها ما هو خاصٌّ بالخطابِ نفسِه، من تسلسلٍ لأفكارِه وترتيبٍ لأجزائِه وسلاسةٍ في أسلوبِه، ولم ينسَ دورَ الحججِ التي أطلقَ عليها مصطلحَ وسائلِ الإقناعِ في فاعليةِ الخطابِ، وفي قوةِ تأثيرِها على المتلقي ذهنيًّا ووجدانيًا، وهو في هذا يعكسُ بحقِ تأثرِه ببلاغةِ (أرسطو) محاولًا أن يربطَها ببلاغةِ العربِ القدامى، مستغلًا فكرةً جوهريةً تمتازُ بها، وهي مراعاةُ مقتضى الحالِ، وكيفيةُ تأثيرِ الوسائلِ البلاغيةِ في المتلقي ومدى حجاجيتِها"([7]). وتأسيسًا على ما سبقَ، يمكنُ القولُ أنَّ للحجاجِ مَعَانىَ كثيرةً جدًا سواء على المستوى اللُّغوي أو الاصطلاحيِّ، إلا أنَّه يصبُ في مجرى

واحدٍ وهو المنازعةُ والخصومةُ بينَ طرفينِ، يريدُ كلٌّ طرفٍ إقناعَ الآخرِ بوجهةِ نظرِه ، من خلالِ تقديمِ الحججِ والبراهينِ، يكونُ الهدفُ منها تحقيقَ الإقناعِ والتأثيرِ.

ثانيًا: آليَّاتُ الحِجَاجِ في الْخِطَابِ الشِّعْرِيِّ الْفَاطِمِيِّ:-

من المعروفِ أنَّ العصرَ الفاطميَّ شهِدَ كثيرًا من الجدلِ، والمتأملُ للخطابِ الشعريِّ في هذا العصرِ يجدُه خِطَابًا جَدَليًّا، حيث إنَّه يناقشُ العديدَ من القضايا مثل؛ معرفةِ الأسرارِ الإلهيةِ، وباطنِ النبوةِ، وعلمِ الوجودِ العرفانيِّ، والتأويلِ الباطنيِّ الذي يكشفُ جوهرَ الخلقِ والدينِ والاستدلالِ بما في الطبيعةِ، وبما على وجهِ الأرضِ، كما أنَّ كتبَ العقيدةِ الفاطميةِ تبحثُ "في الأمورِ التي بحثَها الفلاسفةُ قديمًا، كوجودِ اللهِ، وصفاتِه، ومكانتِه، وأسمائِه، وصفاتِه، وتجلّيهِ، وتخفيّه، وتجريدِه وتنزيه، كما تبحثُ أيضًا في قضيةِ الخلقِ والإبداعِ، وعلاقةِ الأنبياءِ باللهِ، وعلاقةِ الأنبياءِ بالأئمةِ، ويشدّدونَ على نظريةِ الإمامةِ، معتبرينَ النبيَّ هو الناطقُ، والإمامُ هو الصّامتُ؛ لأنه لا ينطقُ بالظاهرِ، مؤكدينَ قضيةَ العهدِ(الميثاق)، وقضيةَ النصِّ، ويمكننا حصرَ كلِّ ذلك فيما يسمَّى علمَ الباطنِ."([8]) وكلُّ هذه الموضوعاتِ قضايا جدليةٌ تحتاجُ إلى إقناعِ الغيرِ بها، فلذلك نجدُ الشعراءَ الفاطميين يصّرون على غرسِ أفكارِهم وقيمِهم في الحياةِ، حيثُ يكونُ هدفهُم إقناعَ العامةِ بمدى أهميةِ المذهبِ الفاطميِّ، كما يهدفُ أيضًا إلى ترسيخِ الحكمِ الفاطميِّ، ويأتي ذلك من خلالِ آلياتٍ استدلاليةٍ حجاجيةٍ للإقناعِ. فتلك هي الآلياتُ الحجاجيةُ؛ التي نهدفُ إلى تحليلِها، والكشفِ عنها من خلالِ مرجعيةٍ فكريةٍ، واجتماعيةٍ، وثقافيةٍ، تُبيّن من خلالِها آلياتُ الحجاجِ في العصرِ الفاطميِّ، أو حجاجيةُ الخطابِ الشعريِّ الفاطميِّ؛ التي تهدفُ إلى إحداثِ تغييرٍ في الموقفِ الفكريِّ والعاطفيِّ لدى المتلقي، حيثُ يتوخى الباث مختلفَ الأساليبِ الملائمةِ قصدَ استمالتِه والتأثيرِ فيه وإقناعِه، والمتأمِّلُ في الخطابِ الشعريِّ الفاطميِّ يدرك أنَّه عبارةٌ عن خطابٍ حجاجيٍّ موجهٍ، فالحجاجُ في الشعرِ الفاطميِّ يخرجُ مِنْ بابِ الخِصَامِ والجَدلِ إلى دائرةِ التَّوجيهِ، لِيُحققَ إقناعَ المتلقي في شِعْرِ لم يخل منْ وظائفَ قصدية سَاقَهَا الموقِفُ والمقامُ، مستمدًا ذلك الشِعْرُ سُلْطتُهُ وإقناعُهُ وتأثيرِه مِنْ المرجَعياتِ الثقافيةِ التي يستندُ عليها، وطابعُهُ الفِكريُّ المدعومُ بأليَّاتِ التداولية وعناصر الحجاجِ الراكزةُ في تقنياتِهِ الفنيِّة ومنظومتِهِ الأخلاقيةِ، وقد ثبت أنَّ المحاجَة في الشعر الفاطمي هي نشاطٌ ذهنيٌّ يتداولُهُ الشاعرُ وفقَ معطياتٍ نفسيةٍ واجتماعيةٍ لغرضِ إثبات فِكْرةٍ أو تثبيت دعائم الفكر الشيعي، كما استعملَ الشعراءُ الفاطميونَ حججًا كثيرةً في خطابِهم الشعريِّ، ومن أبرز تلك الحججِ: السلمُ الحجاجيُّ، والروابطُ الحجاجيةُ، والعواملُ الحجاجيةُ.

أولًا السُلَّمُ الحِجاجيُّ:-

يقوم السَّلمُ الحجاجيُّ على نظامِ ترتيبِ الحججِ حسبَ قوتِها عموديًا، من الحجةِ الضعيفةِ إلى الحجةِ القويةِ، وقد وردَ في كتابِ(السلالم الحجاجية) عند ديكرو أنَّ السلمَ الحجاجيَّ " هو علاقةٌ ترتيبيَّةٌ للحججِ ويمكنُ أن نرمزَ لها كالتالي([9]):

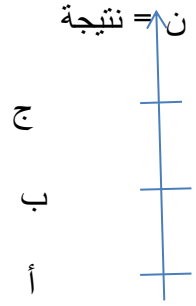

ويرى الباحثُ أنَّ (ديكرو) أقامَ السلمَ الحجاجيَّ على معيارِ التفاوتِ في درجاتِ القوةِ والضعفِ، وعلى سلميّةٍ ممكنةٍ بينَ الحجةِ الأكثرِ قوةً، وبينَ الحجةِ الأكثرِ ضعفًا، وهذا الترتيبُ يُحدد وفقًا للسياقِ ومقتضياتِ المقامِ التي تُلزم المتكلمَ اعتمادَ تسلسلٍ للحججِ بحسبِ قوتِها.

ويلحظُ الباحثُ أنَّ الخطابَ الشعريَّ الفاطميَّ يزخر باللغةِ الحجاجيةِ، إذ يحاولُ من خلالِه المتكلمُ إقناعَ المتلقي، ويمكنُنَا تطبيقَ السلمِ الحجاجيِّ على بعض نماذجِها، وعلى وجهِ الخصوصِ الحججُ التي تتدرجُ حسبَ القوةِ الحجاجيةِ للملفوظِ، على نحوِ قولِ عمارةِ اليمنيِّ([10]):

إنْ كـبـرتْ سـنـي فَـلـي هِـمَّـةٌ لَـمْ يَـتـأثـرْ فَضْـلُـهـا بـالـكـبـرْ
مـا ضـرَّني في غَـدْرُ اللَّيـالي وَقَـدْ وفـي لـي السَّـمْـعُ ونُـورُ الـبَصَـرْ
ولَا خَـبـاَ مِصْـبـاحُ ذِكْـري ولـي فِـكْـرُ سَـلِـيـمٌ ولِسـاَنٌ ذَكَـرْ

ومن ينعم النَّظرَ في هذا الخطابِ الشعريِّ، يلحظُ أنَّه يحتوي على مجموعةٍ من الحججِ، تخدمُ نتيجةً ضمنيةً واحدةً وهي (فخرُ الشاعرِ بعزيمتِه وهمتِه العالية)، حيثُ يوضحُ الشاعرُ في الحجةِ الأولى أنَّه ما زال قويًّا ولم يتأثر فضله أو عزيمتُه أو همتُه بكبرِ سنّهِ، أما الحُجةُ الثانيةُ ففحواها أن الليالي لم تؤثرَ فيه رغمَ غدرِها طالما أن السمعَ والبصرَ ما زالا موجودين، وتكمنُ الحجةُ الثالثةُ في أنَّه ما زال صاحبَ رأيٍ سديدٍ وفصاحةٍ بالغةٍ وفكرٍ سليمٍ، فهذه الحججُ تتضمَّنُ حججًا تنتمي إلى الفئةِ الحجاجيةِ نفسِها، وإلى حكمٍ حجاجيٍّ واحدٍ، فكلُّها تؤدي إلى نتيجةٍ واحدةٍ من قبيلِ (فخر الشاعر بعزيمتِه وهمتِه العالية)، والحججُ الواردةُ في الأبياتِ متفاوتةٌ في القوةِ، وليست لها الدرجةُ نفسُها في السلمِ الحجاجيِّ، فالحجةُ الثانيةُ (لي السَّمْعُ ونُورُ البَصَرْ) أقوى دليلًا على اعتزازِ الشاعر بعزيمتِه، حيثُ إذا كبرَ المرءُ ولا يمتلكُ السمعَ والبصرَ فلا يكونُ له تأثيرٌ في الحياةِ بنفسِ القدرِ إذا كان يمتلكُهما، فبفقدِهما يكونُ قد فقدَ القدرةَ على التواصلِ مع الآخرينَ، والحُجةُ الثالثةُ (ولي فِكْرُ سَلِيمٌ وِلِسانٌ ذَكَرْ) أقوى من الثانيةِ؛ لأن أهمَّ ما يميزُ الإنسانَ في سنِ الشيخوخةِ هو أن يكون لديه فِكْرٌ سليْمٌ وَرَأْيٌ سَدِيْدٌ، فضلا على أن

يكونَ مازال قادرًا على السمعِ والبصرِ، لذا وردت في أعلى درجاتِ السلمِ الحجاجيِّ، وبذلك فإن السلمَ الحجاجيَّ يرتكزُ على التدرجِ في القوةِ الحجاجيةِ للملفوظاتِ، ويمكنُ توضيحَ ذلك في السلمِ الحجاجيِّ الآتي:

النتيجة ن: فخر الشاعر بعزيمته وهمته العالية

ح3 ولي فِكْرُ سَلِيمٌ وِلِسانٌ ذَكَرْ.

ح2 لي السَّمْعُ ونُورُ البَصَرْ.

ح1 فَلي هِمَّةٌ لَمْ يَتأثرْ فَضْلُهاَ بالكبرْ.

ويقولُ ابن قلاقس في مدحِ طلائعِ بنِ رزيك([11]):

يَـدُ الصَّـــالح الْمَنْصـــورِ أَعْظمُ نـائِلاَ وأَجْـزَلُ إعْـطـاَء وأَوفـرُ مـغـنَـمـا
مَلِيـكٌ أَضـــاَءَ الليـلَ مِنْ نُورِ وَجْهِـه وأفعـالِـه الحْســنْى وَقَـدْ كَـانَ مُظْلِمـا
سَـــجَّـيُـتـه بـذلُ الـنَّـوال فَـلَـنْ تَـرَى بـأَرْضِ ثَوىَ فيهـا من النـاسِ مُعْـدَمًـا
يُريـكَ إذا ســـاَلَمْتَـهُ البـدرَ طـالـعًـا تَمـامًـا وإن حـاَربْتـهُ الليـث مُقْـدِمـا
أجِـدّكَ مـا تنفـكّ تعطى لســـائر الـ ـــــمُعـادين بُوســـى والموالين أنعُمـا

يتضمنُ هذا الخطابُ الشعريُّ مجموعةً من الحججِ، تنتمي إلى حكمٍ حجاجيٍّ واحدٍ، استعانَ بها ابنُ قلاقس الإسكندري لاستمالةِ المتلقي وإقناعِه بنتيجةٍ مضمرةٍ وهي (كرمُ الممدوحِ وشجاعتُه)، ويمكنُ تمثيلُ هذه الحججِ بواسطةِ السلمِ الحجاجيِّ التالي:

ن النتيجة: كرم الممدوح وعطائه.

ح4 يُريكَ إذا سالَمْتَهُ البدرَ طالعًا.

ح3 سَجَّيُته بذلُ النَّوال.

ح2 وأفعالِه الحْسنْى وَقَدْ كَانَ مُظْلما.

ح1 أَعْظمُ نائِلاَ وأَجْزَلُ إعْطاَء وأَوفرُ مغنَما.

جاءَتْ هذه الحججُ مرتبةً عموديًا من الأضعفِ إلى الأقوى، فالحجةُ الأولى(أَعْظمُ نائِلاَ وأَجْزَلُ إعْطاَء وأَوفرُ مغنَما) تدلُ على مدحِ الممدوحِ بالكرمِ، والجودِ، والعطاءِ، فلا يوجدُ أكثرُ منه عطاءً أو أسخى منه يدًا، ثم لجأَ

إلى الحجةِ الثانيةِ (وأفعالِه الحُسْنَى) كتدعيمٍ أقوى للحجةِ الأولى، حيثُ يُبرهن أنَّه ملكٌ كريمٌ، فقد أضاءَ الليلَ المظلمَ بنورِ وجهِهِ وحسنِ أفعالِه، ثم يستعينُ بالحجةِ الثالثةِ (سَجَّيْته بذلُ النَّوال) وهي أقوى من الحجَّتينِ الأولى والثانيةِ، وتؤكدُ بأنَّ الكرمَ، والجودَ، والعطاءَ، ليس بجديدٍ على الشاعرِ، فتلك طبيعتهُ التي فُطِرَ عليها، فالممدوحُ لا يتركُ أحدًا نزلَ بأرضِه إلا أكرمَه وأعطاهُ، ثم يقدمُ لنا الحجةَ الرابعةَ (يُريكَ إذا سألَمْتَهُ البدرَ طالعًا) وهي أقوى الحججِ على كرمِ الممدوحِ وعطائِه، فالممدوحُ كريمٌ معطاءٌ وقتَ السلمِ، وأسدٌ جسورٌ وقتَ الحربِ، وهو منعمٌ أشدَّ ما يكونُ الإنعامُ لمؤيديه ومسالميه، وهو نذيرٌ شرٍّ ودمارٍ لأعدائِه، وجاء الشاعرُ بهذه الحجةِ في نهايةِ الأبياتِ ليدعمَ بها القولَ برمتِه، فلو بدأ الشاعرُ بهذه الحجةِ لكان هناك خللٌ في الترتيبِ مما يؤدي إلى عدمِ إقناعِ المتلقي، فهناك تدرُّجٌ وتراتبيَّةٌ في الحججِ المُلقاةِ، وبذلك ينجحُ الشاعرُ في استمالةِ المتلقي وإقناعِه بما يطرحُه.

ويقدمُ ابنُ هانئ الأندلسيِّ مجموعةً من الحججِ أثناءَ مدحِه للخليفةِ (المعز لدين الله الفاطمي)، حتى يتهيأَ للقارئِ أنَّه يتحدثُ عن نبيٍّ مرسلٍ، فيقولُ([12]):

فَقَد صَارَتْ الدُّنيَا إليكُم مَصيرهَا ... وصَارَ لَهُ الحَمدُ المُضَاعَفُ والأَجْرُ

إِمَامٌ رأَيتُ الدِّينَ مُرتَبِطًا بِهِ ... فَطَاعَتُهُ فَوزٌ وعِصيَانُهُ خُسْرُ

أَرى مَدحَهُ كَالذِّكرِ للهِ إنَّهُ ... قُنوتٌ وتَسبيْحٌ يُحَطُّ بِهِ الوِزْرُ

ونلحظُ أنَّ كلَّ هذه الحججِ داخلَ الخطابِ الشعريِّ تنتمي إلى حكمٍ حجاجيٍّ واحدٍ، فكلُّها تؤدي إلى حملِ المتلقي على الإذعانِ لإقناعِه بنتيجةٍ واحدةٍ وهي (تأكيدُ فكرةِ الإمامةِ لدى المتلقي)، فالإمامةُ هي الأصلُ الذي تعتمدُ عليه الدعوةُ الشيعيةُ كلُّها، فهي المحورُ الأساسيُّ الذي تدورُ عليه دائرةُ الفرائضِ التكليفيةِ عندهَم، فلا يصحُ وجودُها إلا بوجودِ الإمامِ – حسبَ زعمهِم– ولم " يبعث الله نبيًا يدعو إلى معرفةِ ليس معها طاعة، وإنما يقبل الله عزوجل العمل من العبادِ بالفرائضِ التي افتراضها عليهم بعد معرفة مَن جاء بها من عنده، دعاهم إليه فأول ذلك معرفة مَن دعا إليه وهو الله الذي لا إله إلا هو وحده ما جاء به، ثم معرفة الوصي، ثم معرفة الأئمة بعد الرسل الذين افترض الله طاعتهم في كل عصر وزمان على أهله"([13])، وهذه الحججُ التي جاءتْ في الأبياتِ متفاوتةٌ في القوةِ، وليس لها نفسُ الدرجةِ في السلمِ الحجاجيِّ، ويمكنُ أن نرمزَ لهذه العلاقةِ بينَ الحججِ المرتبةِ ترتيبًا عموديًا من الأضعفِ إلى الأقوى بالسلمِ الحجاجيِّ التاليِّ:

ن النتيجة: تأكيد فكرة الإمامة.

ح3 أَرى مَدحَهُ كَالذِّكرِ للهِ.

ح2 وعِصيَانُهُ خُسْرٌ.

ح1 فَطَاعَتُهُ فَوزٌ.

يتمثلُ الحجاجُ في هذه الأبياتِ في محاولةِ الشاعرِ التأثيرَ في المتلقي وإقناعَه المذهبَ الفاطميَّ وتأكيدَ فكرةِ الإمامةِ لديه، فنراه يستعينُ بمجموعةٍ من الحججِ مرتبةً ترتيبًا عموديًا من الأضعفِ إلى الأقوى، فبدأ بحجَّةٍ (فَطَاعَتُهُ فَوزٌ) وذلك لأنَّ الإمامَ في طاعتِه فوزٌ ومكسبٌ، ثم يأتي بالحجةِ الثانيةِ (وعِصيَانُهُ خُسْرٌ) كتدعيمٍ للحجةِ الأولى؛ فعصيانُ أمرِ الإمامِ خسارةٌ كبيرةٌ، ثم يستعينُ الشاعرُ بالحجةِ الثالثةِ (أَرى مَدحَهُ كَالذِّكرِ للهِ) حيثُ جعلَ مدحَ الإمامِ كذكرِ المخلوقِ لخالقِهِ وتسبيحِه له، فتسقطُ الأعباءُ من الذنوبِ عَمَّن يفعلُ ذلك، وجاءت هذه الحجَّةُ أعلى درجاتِ السلمِ؛ لأنها أقوى الحججِ على وجوبِ طاعةِ الإمامِ.

يرى الباحثُ أن السلمَ الحجاجيَّ يقوم على مبدأ التدرج في استخدامِ الحجج واستعمالِها؛ لأن الحجاجَ يرتبطً بقوة الحججِ وضعفِها، حيث ينظم المتكلم براهينه أثناء العملية التواصلية وفق ترتيب دقيق تتحكم فيه معطيات كثيرة، منها مرتبة المتكلم، وطبيعة المخاطب، والسياق أو المقام الذي يرتبط بالخطاب الحجاجي، ويكون الهدف من السلم الحجاجي تأكيد نتيجة معينة تسبقها معطيات أو بالأحرى مقدمات، تسهم بطريقة متقنة لتحقيق القضية المطروحة أو دحضها.

ثانيًا اَلْرَّوابِطُ الحِجَاجِيَّةُ:-

لقد اهتمَّ (ديكرو) و(أنسكومبر) بوضعِ النظريةِ الحجاجيةِ في اللُّغةِ في إطارِ التَّداوليَّةِ المُدمجة التي أصبحتْ جزءًا من النَّظريَّةِ الدَّلاليَّةِ، وتعدُّ الرَّوابطُ الحِجاجيَّةُ من عناصرِها الأساسيةِ التي تتمثَّلُ في أبنيةِ اللُّغةِ، التي من وظيفتِها أن تُحدثَ تلاؤمًا وانسجامًا بينَ الجملِ في الخطابِ، فالروابطُ الحجاجيةُ " تربطُ بينَ قولينِ، أو بين حجَّتينِ لُغويتينِ، وتُسند لكلِّ واحدةٍ منها مهمةً محددةً داخلَ الاستراتيجيَّةِ الحجاجيَّةِ العامَّة، وهي مثلُ: بل، لكِنْ، حتَّى، لا سيما، إذنْ، بما أنَّ، إذْ ..."([14])، وتعرفُ أيضًا بأنَّها" أدواتٌ تقومُ بوظيفةِ الربطِ بينَ مكوناتِ التركيبِ الحجاجيِّ في النصِ، وتعملُ على تقويةِ الحججِ والبراهينِ وتعضيدِ الخطابِ الإقناعيِّ؛ لأن تقديرَ المتكلمِ أو المرسلِ لردودِ أفعالِ المخاطبِ أو المرسلِ إليه، يجعلُه يستنبطُ حججًا افتراضيةً"([15])، وبذلك تعدُّ الروابطُ الحجاجيةُ أهمَّ العناصرِ في الحجاجِ، حيثُ جعلت النصَّ الحجاجيَّ مترابطًا ومتماسكًا ومنسجمًا، فوصلَ الحججَ والنتائجَ بروابطَ لغويةٍ يجعلهُا متعلقةً ببعضِها البعضِ، وهذا يجعلُ النصَّ منسجمًا يؤدي دورَه الإقناعيَّ، وهو إقناعُ المتلقي.

ويلحظُ الباحثُ كثرةَ الروابطِ الحجاجيةِ في اللُّغةِ؛ ونجد منها ما يستعملُ في النثرِ والشعرِ، ومنها ما يستعملُ في النثرِ دونَ الشعرِ، لذلك ستقتصرُ الدراسةُ على دراسةِ بعضِ الروابطِ الحجاجيةِ واستعمالاتِها الحجاجيةِ في الخطابِ الشعريِّ الفاطميِّ، دونَ اللجوءِ إلى الجوانبِ الأخرى (التركيبية، النحوية، الدلالية).

1- لكن المخفَّفةُ والمثقَّلةُ:

هي رابطٌ حجاجيٌّ تربطُ بينَ قولينِ متفاوتينِ في القوةِ، وتفيدُ الاستدراكَ، كما تستعملُ للحجاجِ والإبطالِ، فالتلفظُ بأقوالٍ من نمطِ (أ) لكن (ب) يستلزم أمرين وهما([16]):

أ- تشكّلُ كلٌّ من (أ) و(ب) حجتين؛ الأولى موجهةٌ نحو النتيجةِ (ن)، والثانيةُ موجهةٌ نحوَ النتيجةِ المضادةِ لها التي نرمزُ لها ب: (لا- ن).

ب- تعتبرُ الحجةُ الثانيةُ أقوى من الأولى، فهي التي توجِّهُ الخطابَ برمتِه.

فاستخدامُ الرابطِ (لكن) في العمليةِ الحجاجيةِ مفادهُ الحفاظُ على النتيجةِ التي تكونُ مناقضةً للنتيجةِ السابقةِ، وبالتالي تكونُ الحجةُ الثانيةُ أقوى من الحجةِ الأولى، وهذا على نحوِ قولِ ابن حيوس([17]):

ومَا مَدَحَت بِهِ الخَنساءُ صَخرًا ... مُشَبِّهَةً لَهُ فَعَلا مَحَلا

وَلَيسَ بِرَأسِ ذا نارٌ وَلَكِن ... بِنورِ جَبينِهِ الظُلُماتُ تُجلا

وَأَعظَمَ أَهلُ مِصرَ ما رَأَوهُ ... فَصارَ حَديثُه لِلقَومِ شُغلا

يدلُ هذا الخطابُ الشعريُّ دلالةً قويةً على تأكيدِ فكرةِ النورِ واتصالِها بالمعتقدِ، كما يظهرُ دورُ الرابطِ الحجاجيِّ (لكن) في تأكيدِ هذه الفكرةِ في البيتِ الثانيِّ، حيثُ يتضمنُ عبارتينِ، الأولى تتضحُ في قولِه:(وَلَيسَ بِرَأسِ ذا نارٌ) تشكلُ حجةً تخدمُ النتيجةَ (ن) المتمثلةَ في أنَّ ممدوحَ ابنَ حيوس ليس في رأسِه نارٌ، مثل (الخنساءِ) التي جعلتْ من أخيها علمًا في رأسِه نارٌ، فضياؤُهُ فعلٌ بشريٌّ، أمَّا العبارةُ الثانيةُ هي (بِنورِ جَبينِهِ الظُلُماتُ تُجلا) فهي حجةٌ أقوى من الحجةِ الأولى وتخدمُ النتيجةَ المضادةَ (لا- ن) من قبيلِ: أنَّ نورَ الإمامِ فهو تجلٌّ إلهيٌّ فيه، حيثُ يحملُ هذا النورُ رُمُوزًا ودلالاتٍ خفيةً لا يستطيعُ تفسيرَها إلا مَنْ كان عالمًا بعلمِ التأويلِ الفاطميِّ، فالنورُ سيظلُ متواصلًا متصلًا منتقلًا طالما هناك إمامٌ، سواءَ أكانَ ظاهرًا أو مستورًا، وطالما كان الإمامُ ماثلًا مَوْجُودًا فإنَّ اللاهوتَ النورانيَّ سيظلُ يطلُّ على الدنيا بإشراقاتِه النورانيةِ التي تحيلُ الظلامَ نورًا مبينًا، إذن فالرابطُ الحجاجيُّ (لكن) ربَط بينَ حُجَّتين متعارضتَين من خلالِ إقامةِ علاقةٍ حجاجيةٍ بينهما، ويتضحُ هذا من خلالِ الشكلِ التاليِّ:

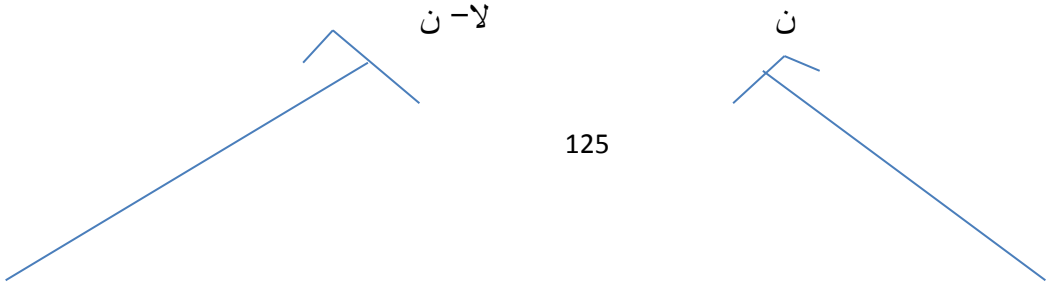

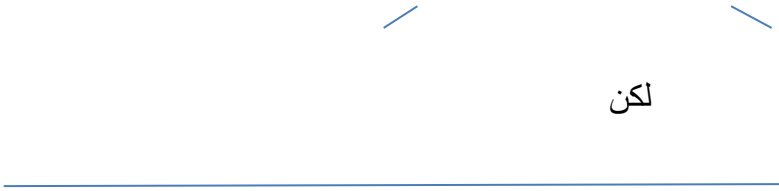

ونجدُ أسامةَ بنَ منقذٍ أرادَ أن يحافظَ على المشاعرِ الصادقةِ بينَه وبينَ صديقِ طلائعِ بن رزيك فَمَدَحَهُ بأنه شخصٌ كريمٌ يصعدُ إلى العلا والغنى والمجدِ الأصيلِ، فاستعملَ الرابطَ الحجاجيَّ (لكن) لكي يقنعَ المتلقى بحميميةِ العلاقةِ بينهما([18]):

وكنتُ أرجِّى منه ما دونَه الغِنَى إذا ما غَدا في كفِّه الرّفعُ والحطُّ
نأَتْ بِي اللَّيالي عنه، لكنَّ جُودَه أتَاني، ولم يَحجِزْه نأيٌ ولا شَطُّ
كذا الغيث يسري طالباً كل طالب فكُّل له من فيضِ وابله قِسطُ

والمتأملُ في هذا الخطابِ الشعريِّ يلاحظُ أنه عبارةٌ عن خطابٍ حجاجيٍّ، حيثُ يتضمنُ البيتُ الثاني حجتينِ يربطُ بينهَما الرابطُ (لكن)، فالحجةُ الأولى مفادُها أنَّ الليالىَ أبعدتهُ عنه، وأنَّ نوائبَ الدهرِ قد دفعتُهُ إلى الرحيلِ والبعدِ، أمّا الحجةُ الثانيةُ تُبيّنُ أنَّ كرمَ ممدوحِه لا يفصلُه ولا يقفُ دونَه أيُّ حائلٍ أو مانعٍ، فهو في كرمِه مثلُ الغيثِ وعليه فإنَّ الحجتينِ تخدمانِ نتيجةً واحدةً وهي: مدى المودةِ، والمحبةِ، والمشاعرِ النبيلةِ الصادقةِ بينَ أسامةَ وطلائعِ.

2– الرابط حتى:

يقولُ (ديكرو) في هذا الرَّابطِ الحجاجيِّ:" إن الحُجَّجَ المربوطةَ بواسطةِ هذا الرابطِ ينبغي أن تنتمي إلى فئةٍ حجاجيةٍ واحدةٍ، أي إنَّها تخدمُ نتيجةً واحدةً، والحجةُ التي ترِدُ بعدَ هذا الرابطِ تكونُ هي الأقوى، لذلك فإنَّ القولَ المشتملَ على الأداةِ (حتى) لا تقبلُ الإبطالَ والتعارضَ الحجاجيَّ."([19])

ووظَّفَ الشعراءُ الفاطميونَ الرابطَ الحجاجيَّ (حتَّى) داخلَ خطابهِم الشعريِّ، على نحوِ قولِ أسامةَ ابنِ منقذٍ([20]):

وَحَمَى البلاد بسيفِه عَنْ أَنْ تُذالَ، وأَنْ تُذَالا
وأحْل بالإفْرنْجِ في بَرٍّ، وفي بَحْرٍ نكَالا
حتَّى لقد سئَمَوا لِقا ءِ جيوشِ مِصر والقتالا

يتكونُ هذا الخطابُ الشعريُّ من مجموعةٍ من الحججِ التي تنتمي إلى بابٍ حجاجيٍّ واحدٍ؛ لأنَّها حججٌ لفائدةِ نتيجةٍ ضمنيةٍ وهي:(إظهارُ قوةِ الممدوحِ وشجاعتُه وجهادُه ضدَّ الإفرنجِ)، وهذه الحججُ هي:

1- الحجةُ الأولى: قدرتُه على حمي البلادِ من العدوِ وهذا يدلُ على شجاعتِه.

2- الحجةُ الثانيةُ: انتصارُه على الإفرنجِ في البرِّ والبحرِ.

3- الحجةُ الثالثةُ: قد سئمَ الإفرنجُ لقاءَه وأيقنوا أنَّهم مهزومونَ لا مفرَّ، لذلك يهربونَ دائمًا من القتالِ.

وقد جاءَ الرابطُ (حتى) ليزيدَ في قوةِ الحجّةِ الأخيرةِ التي جاءَت بعدَ هذا الرابطِ، والمتمثلةُ في خوفِ الإفرنجِ من القتالِ، وهي الحجةُ الأقوى في هذه المجموعةِ، وقد كانت آخرَ حجةٍ يمكنُ تقديمهُا لصالحِ النتيجةِ المقصودةِ، وبذلك فإنَّ هذه الحججَ جاءتْ متدرجةً حسبَ القوةِ والضعفِ، ويمكنُ توضيحُ ذلك في السلمِ الحجاجيِّ الآتي:

النتيجة ن:(إظهار قوة الممدوح وشجاعته وجهاده ضد الإفرنج)

(ح3) حتَّى لقد سئَمَوا لِقاءِ جيوشِ مِصر والقتالا

(ح2) وأحْل بالإفْرِنْجِ في برٍّ، وفي بَحْرٍ نكالَا

(ح1) وَحَمَى البلاد بسيفِه.

كما يظهرُ دورُ الرابطِ الحجاجيِّ (حتى) في قولِ عمارةَ اليمنيِّ حينما مدحَ الخليفةَ العاضدَ الفاطميَّ([21]):

بصفاتِ مجدكَ يشرفُ التمجيدُ ... وبنورِ وجهكَ يشرقُ التوحيدُ

وعليك من شيمِ النبيّ وحيدرٍ ... للناظرين أدلّةٌ وشهودُ

شَخَصَتْ إليك نواظرُ الأُممِ التي ... ملكتْهُم لكِ بيعةٌ وعهودُ

حتّى صعدت على ذؤابةِ منبرٍ ... لو كان عودًا ماسَ ذاك العودُ

ونلحظُ في هذا الخطابِ الشعريِّ أنَّ الرابطَ الحجاجيَّ(حتى) ربطَ بينَ مجموعةٍ من الحججِ؛ التي تخدمُ نتيجةً ضمنيةً مفادُها (الدعوةُ للمذهبِ الفاطميِّ، والتقيدُ بتعاليمِه، والالتزامُ بآرائِه وتوجيهاتِه، وجاء ذلك عن طريقِ تأكيدِ فكرةِ الإمامةِ وهي من العقائدِ الفاطميةِ)، وقد رتّبت الحججُ حسبَ قوتِها وذلك كالآتي:

1- الحجةُ الأولى: إنَّ الإمامَ مثلٌ، وممثولُه العقلُ الكليُّ الواحدُ الذي بنورِهِ يُعرفُ اللهُ، وهذا تأكيدٌ لفكرةِ الإمامةِ.

2- الحجةُ الثانيةُ: الإشارةُ إلى النورِ المتنقلِ في الأصلابِ والأرحامِ منذُ آدمَ إلى عبدِالمطلبِ، وانقسامِه في قسمينِ: عبدِاللهِ فمحمدٍ ففاطمةَ، وأبى طالبٍ فعليٍّ، ثم يأتي بعدَ ذلك توحُّدُ النورِ الإلهيِّ عن طريقِ زواجِ عليٍّ من فاطمةَ، وتوراثُه الأئمةَ بعد ذلك.

3- الحجةُ الثالثةُ: أن نواظرَ الأممِ أصبحتْ شاخصةً بعدَ تقديمِها البيعةَ لك.

4- الحجةُ الرابعةُ: تركيزُ الشاعرِ على لفظةِ (منبر)، فهذه إشارةٌ إلى الخاصيةِ الإماميةِ، حيثُ إنَّ تأكيدَ فكرةِ الإمامةِ تأتي من الصعودِ للمنبرِ، وخاصةً أنَّ المنبرَ لو كان عودًا لأورقَ وصارَ غصنًا مزهوًّا.

ويلحظُ الباحثُ أن الحجةَ الأخيرةَ التي جاءت بعدَ الرابطِ (حتى) هي أقوى حجةٍ تخدمُ النتيجةَ المرادةَ وهي تأكيدُ فكرةِ الإمامةِ، حيثُ يرتبطُ المنبرُ بالإمامِ دائمًا ويستطيعُ من خلالِه توجيهَ الناسِ إلى ما يريدُ، فيكونُ في هذه الحالةِ في أعلى درجاتِ السلمِ الحجاجيِّ.

3- **الرابط بل:**

يستعملُ هذا الرابطُ أيضًا للحجاجِ والإبطالِ مثلَ الرابطِ الحجاجيِّ(لكن)، كما يعدُّ من الروابطِ الحجاجيةِ المهمةِ، وتكمنُ حجاجيتُه في" أنَّ المرسلَ يرتبُ بها الحججَ في السلمِ بما يمكنُ تسميتُه بالحججِ المتعاكسةِ، وذلك بأنَّ بعضَها منفيٌّ وبعضَها مثبتٌ"([22])، ويتحددُ دورُه في الربطِ نفيًا أو إيجابًا على حسبِ السياقِ الذي يردُ فيه.

ويظهرُ الدورُ الحجاجيُّ للرابطِ (بل) في الخطابِ الشعريِّ الفاطميِّ، فقد استعملَه الشعراءُ الفاطميونَ في أكثرَ من موضعٍ على نحوِ قولِ المؤيدِ في الدينِ([23]):

مَا قُلتُ زُورًا ولَم أَقُلْ شَطَطَا بَلْ هُوَ نُورٌ لِكُلِّ مَنْ فَهِمَا

ونجدُ في هذا البيتِ أنَّ الشاعرَ ربطَ بالرابطِ (بل) بينَ حجتينِ تخدمانِ نتيجةً واحدةً وهي:(حمل المتلقي على تصديقِ قولِه، وخاصةً أنَّ حديثَه مفهومٌ ولا يحتاجُ إلى إيضاحٍ)، أما الحججُ فهي:

1- الحجةُ الأولى: فالشاعرُ لم يقلِ الزُّورَ.

2- الحجةُ الثانيةُ: وهو لم يقل أيضًا قولاً مفرطاً، أو قولاً بعيداً عن الصوابِ أو جوراً.

3- الحجةُ الثالثةُ: بل كلٌّ حديثِه مفهومٌ وواضحٌ.

ونلاحظَ أنَّ الحجةَ الأخيرةَ أقوى من الحجتينِ الأولى والثانيةِ، وهذا يعني أنَّ الحجةَ التي تقعُ بعدَ الرابط (بل) تكونُ أقوى حُجَّةً في الخطابِ، وذلك لأنَّ كلامَ الشاعرِ واضحٌ، ويمكنُ توضيحُ ذلك في السلمِ الحجاجيِّ الآتي:

النتيجة ن:(حمل المتلقي على تصديق قوله)

(ح3) هُوْ نُورٌ لِكُلِّ مَنْ فَهِمَا.

(ح2) ولَم أَقُلْ شطَطَا.

(ح1) مَا قُلت زُورًا.

كما يظهرُ دورُ الرابطِ الحجاجيِّ (بل) في قولِ المهذبِ بنِ الزبير[24]:

مـا زُلـزلـتْ أرضُ الـعِـدا، بـل ذاك مـا بـقـلـوبِ أهـلـهـا مـن الـخـفـقـانِ

ولـقـد بـعـثـت إلـى الـفـرنـج كـتـائـبًـا كـالأُسْـــدِ حين تصـــولُ في خفَّـانِ

فنجدُ في هذا الخطابِ الشعريِّ أنَّ الشاعرَ استغلَ فرصةَ ما أصابَ أرضَ العدوِ من زلازلٍ أثناءَ المعركةِ ليوظفَها لصالحِ المعركةِ والقتالِ، وهذا أصابَ العدوَ بالخوفِ والذعرِ، فجعلَ موقعَ الزلازلِ لا في الأرضِ، بل في قلوبِ الأعداءِ، مما أدى إلى هزيمتهِم، ويتكونُ هذا الخطابُ الشعريُّ من نتيجةٍ تتمثلُ في شدةِ القتالِ ورهبتِه والإشادةِ بقوةِ الجيشِ وبأسهِ، وحجتين يربط بينهَما الرابط (بل)، وهما:

1- الحجةُ الأولى: ما زُلزلتْ أرضُ العِدا.

2- الحجةُ الثانية: ذاك ما بقلوبِ أهلها من الخفقانِ.

وتخدم الحجةُ الأولى النتيجةَ المذكورةَ سابقًا، لأنَّ هذا يدلُ على خوفِهم وعدم قدرتِهم على هذه المواجهةِ، كما تخدمُ الحجةُ الثانيةُ التي جاءت بعد (بل) النتيجةَ نفسَها، والملاحظُ أنَّها أقوى من الحجةِ الأولى، وبذلك ربطَ الرابطُ (بل) بينَ حجتينِ تكمِّلَان بعضَهما، ويمكنُ توضيحُ ذلك من خلال السلمِ الحجاجيِّ الآتي:

ومن خلالِ ما سبقَ، يرى الباحثُ أن تلك الروابطَ الحجاجيةَ داخلَ الخطابِ الشعريِّ الفاطميِّ عبارةٌ عن أدواتٍ لغويةٍ تساعدُ في الربطِ بينَ الحججِ والنتائجِ، أي إنَّها تربطُ بينَ قضايا الخطابِ، والمعنى المرادِ توصيلُه للمتلقي، ويتمُّ ذلك عن طريقِ ترتيبِ الحججِ أو تأكيدِها أو تعارضِها، لأن مضمونَ الخطابِ الفاطميِّ لا يمكنُ تحديدُه باعتبارِه مضمونًا ثابتًا، ولكن باعتبارِه متغيرًا، كما تساهمُ هذه الروابطُ على تكاملِ الخطابِ وانسجامِه وتوافقِه، حيثُ يوضعُ الرابطُ المناسبُ الذي يتماشى وظيفتَه مع المعنى المقصودِ في المكانِ الملائمِ، مما يسهلُ على المخاطبِ فهمُ هذا الخطابِ، والوصولِ إلى النتيجةِ المرجوةِ من الباثِ، بل والاقتناعُ بها.

ثالثًا العواملُ الحجاجيةُ:-

تقومُ العواملُ الحجاجيةُ بحصرِ وتقييدِ الإمكاناتِ الحجاجيةِ لقولٍ ما، فهي لا تربطُ بينَ حجةٍ أو نتيجةٍ، أو بينَ مجموعةِ حججٍ، فالعواملُ الحجاجيةُ هي"عناصرٌ لغويةٌ تنتظمُها غايةٌ واحدةٌ، وهي

تحقيـقُ الخطـابِ للإقنـاعِ فـي عـمليـةِ التواصـلِ"([25])، ويُعـرفُ العامـلُ الحجاجـيُّ بأنـّه "وحـدةٌ لغـويةٌ إذا تـم إعمالهُـا فـي ملفوظٍ معيـنٍ فإن ذلـك يـؤدي إلى تحويـلِ الطاقةِ الحجاجيةِ لهذا الملفوظِ، والتحولُ الذي يحدثُه العاملُ الحجاجيُّ في المحتوى الدلاليِّ للملفوظِ الذي يردُ فيه لا يكونُ مستمدًا من القيمِ الخبريةِ التي يضيفُها هذا العاملُ، وإنما يستمدُ من وظيفتِه التحويليةِ الحجاجيةِ الخالصةِ، فهو لا يضيفُ مضمونًا خبريًا جديدًا، وإنما غايةُ ما يحدثُه هو شحنُ وتحويلُ المضمونِ الخبريِّ القائمِ؛ ليؤديَ وظيفةً تتلاءمُ مع الاستراتيجيةِ الحجاجيةِ للمتلفظِ."([26]) ويتضحُ من خلالِ ذلك أنَّ للعواملِ الحجاجيةِ دورًا مهمًا في توجيهِ الملفوظِ نحوَ نتيجةٍ معينةٍ، حيثُ يكونُ هدفُ المتكلمِ إقناعَ المتلقي وتسليمَه بالقضيةِ المطروحةِ، أو بتوجيهِه، أو بالتأثيرِ في مشاعرِه .

ويزخرُ الخطابُ الشعريُّ الفاطميُّ بالعواملِ الحجاجيةِ، حيثُ ركزَ الشعراءُ الفاطميونَ على إبرازِ دورها الحجاجيِّ في تحقيقِ مقاصدِهم وأهدافِهم من ناحيةٍ، وإبرازِ المظاهرِ الحجاجيةِ التي يكتسبهُا الملفوظُ بدخولِ تلك العواملِ الحجاجيةِ من ناحيةٍ أخرى، ولعلَّ أبرزهَا:

1- عامليَّة أدواتِ النَّفْيِ:

يعدُّ الحِجَاجيون النفـيَ عامـلًا حجـاجيًا " يحقـقُ بـه المتكلّـمُ وظـيفـةَ اللُّغـةِ الحجاجيـةِ المتمثلـةِ فـي إذعـانِ المتقبّـلِ وتسليـمِـه عبـرَ توجيهِـه بالملفـوظِ إلـى النتيجـةِ (ن)"([27])، وهـذا يعنـي أنَّ عامليـةَ النفـيِ الحجاجيـةِ فـي الخطـابِ الشعـريِّ الفاطمـيِّ لا يمكـنُ إدراكُهـا إلا بإدراكِ النتيجـةِ، على نحوِ قولِ تميمِ الفاطميِّ([28]):

شَـبَّهْتُهَـا بـالبـدرِ فـاسـتَضْـحَكَـت	**وقـابـلـت قـولـي بـالـنُّـكـرِ**
وسـفَّـهَـت قـولـي وقـالـت مـتـى	**سَـمُـجُـت حـتـى صـرتُ كـالـبـدرِ**
الـبـدرُ لا يَـرنـو بـعـيـنٍ كـمـا	**أرنـو ولا يَـبسِـمُ عـن ثَـغـرِ**
ولا يُـمِـيـط الـمِـرطَ عـن نَـاهـدٍ	**ولا يَشـدُّ الـعِـقـدَ فـي نـحـرِ**
مَـن قـاسَ بـالـبـدرِ صـفـاتـي فـلا	**أزال أسـيـرًا فـي يَـدَيْ هـجـري**

ومـن يُنعـمِ النَّظـرَ فـي هـذا الخطـابِ الشعـريِّ يجـدْ أنَّـه اكتَسَـبَ طاقـةً حجاجيةً كبيرةً، وذلك لوجـودِ عامـلِ النفـيِ مكـررًا(لا)، والنفـيُ فـي هـذه الأبيـاتِ نفـيٌ جـدلـيٌّ، فالحجـجُ المنفيـةُ (لا يَرنـو بعيـنٍ، ولا يَبسِمُ عـن ثَغـرٍ، لا يُمِيـط المِرطَ عـن نَاهـدٍ، ولا يَشـدُّ العِقدَ فـي نحـر، فـلا أزال أسيرًا)، فعـاملُ النفـي يوجِّـه الملفـوظَ نحـوَ نتيجـةٍ واحـدةٍ مفادهـُا أن يَبلـغَ بالمحبـوبةِ الأنمـوذجَ الكـامـلَ للجمـالِ، وقـد أجـراَه علـى لسانهـا ليكسـبَ المشهـدَ ضـربًا مـن الواقعيـةِ، واستعـانَ تميـمُ الفاطمـيُّ بهـذه الحججِ المنفيةِ لاستمالةِ

المتلقي وإقناعِه بكلِّ هذه الصفاتِ الحسنةِ للمحبوبةِ، ويمكنُ تمثيلُ تلك الحُجَجِ المنفيةِ الواردةِ بالأبياتِ على النحوِ التاليِّ:

ن : الأنموذج الكامل لوصف جمال المحبوبة.

ح5 فلا أزال أسيرًا في يَدَيْ هجري

ح4 ولا يَشدُّ العِقدَ في نحرِ.

ح3 لا يُمِيط المِرطَ عن نَاهدٍ.

ح2 لا يَبسِمُ عن ثَغرِ.

ح1 لا يَرنو بعينٍ.

جاءت هذه الحججُ المنفيةُ متدرِّجةً من الحُجَّةِ الأضعفِ إلى الحُجةِ الأقوى، وقد جعلَ تميمُ الفاطميُّ هذه الأقوالَ المنفيةَ تتوانى وتترابطُ على نحوٍ دقيقٍ؛ حتى تكونَ بعضُها حُجَجًا تدعّمُ وتثبِّتُ بعضَها الآخَرَ.

ويُضيِّقُ عاملُ النفيِ النتائجَ أمامَ المتلقي، ويضعه أمامَ نتيجةٍ واحدةٍ مقصودةٍ واستلزامٍ واحدٍ، فتقودُه إلى التسليمِ بها وإقرارِها، على نحوِ قولِ ابنِ هاني الأندلسي([29]):

وكَـأَنَّ بِـهِ لَـمْ يُـبـقِ وِتـرًا ضَـــائِـعًـا فـي كَـربـلاءَ ولا دَمًـــــا مَـطـلـولا

أَوَمَـا سَـــمِـعتُـمْ عَـنْ وقَـائِـعِـهِ الـتـي لَـمْ تُـبـقِ إشـــرَاكًـــــا ولا تَـبـدِيـلا

فالشاعرُ من خلالِ هذه الأبياتِ وظَّف أداتي النفيِ(لم – لا) توظيفًا حجاجيًا حيثَ وجَّه الملفوظَ إلى نتيجةٍ واحدةٍ هي: الحماسةُ والحزمُ على الثأرِ من بني أميةَ وبنى العباسِ، لما اقترفوه في كربلاءِ، واستخدمَ ابنُ هاني الأندلسي هذه الحججَ المنفيةَ (لَمْ يُبقِ وِترًا ضَائِعًا – ولا دَمًا مَطلولا – لَمْ تُبقِ إشرَاكًا – ولا تَبدِيلا) لكي يستعينَ بها الشاعرُ للتأثيرِ على المتلقي وإقناعِه بالثأرِ من قتلةِ الحسينِ في موقعةِ كربلاء، وتكمنُ حجاجيةُ النفيِ هنا في تقديمِ حججٍ منفيةٍ متدرجةٍ في ذلك من الحُجَّةِ الأضعفِ مدلولًا إلى الحُجَّةِ الأقوى مدلولًا.

2– عامليَّةُ أدواتِ القَصْرِ والاسْتِثْنَاءِ:

يعملُ أسلوبُ القصرِ على تقييدِ الإمْكَانَاتِ الحِجَاجيةِ للملفوظِ، وتوجيهِ المتلقي إلى نتيجةٍ بعينِها، وللقصرِ طرقٌ متعددةٌ ومختلفةٌ، ولكن سيقتصرُ الباحثُ على طريقتينِ فقط؛ نظرًا لكثرةِ استعمالِهما في الخطابِ الشعريِّ

الفاطميِّ، أولهُما: القصرُ بالنفيِ والاستثناءِ وصورُه هكذا (ما – إلا) و (لا – إلا)، وثانيهما: القصرُ بالعطفِ بالأدواتِ.

أولًا : اَلْقَصْرُ بالنَّفيِ والاسْتِثْنَاءِ

العاملُ الحجاجيُّ (ما ... إلَّا): هو من التراكيبِ التي تترتبُ فيها الحججُ حسبَ درجتِها الحجاجيةِ، حيثُ تترتبُ في سلمٍ حجاجيٍّ واحدٍ، فهو عاملٌ يوجهُ القولَ وجهةً واحدةً نحوَ الانخفاضِ، وهو ما يستثمرُه المرسلُ عادةً لإقناعِ المرسلِ إليه([30])، وقد قامَ العاملُ الحجاجيُّ(ما ... إلا) بحصرِ الإمكاناتِ الحجاجيةِ لبعضِ الملفوظاتِ، على نحوِ قولِ القاضي الجليسِ([31]):

فَـمَـا غَـالـبُ إلا بِـنَصْـــرِكَ غَـالِـبٌ ومَـا هـاشـمٌ إلا بِسَـيفْـكِ هَـاشِـمُ

فـأدْرِكْ بـثـأرِ الـدِّيـن مـنـه ولـم تـزلْ عن الحقِّ بـالبيضِ الرِّقـاقِ تُخَـاصِـمُ

ومَن يُمعنِ النَّظرَ في هذا الخطابِ، يجدْ أنَّ المتكلمَ والمخاطبَ في سياقٍ تخاطبيٍّ، ويتضمنُ مجموعةً من الحججِ، وكلُّ حُجةٍ تخدمُ نتيجةً خاصةً بها، وهذا ما سيوضحُه الشكلُ التالي:

أداة النفي ← النتيجة ← أداة الاستثناء ← الحجة

ما ← غالب ← إلا ← بِنَصْرِكَ غَالِبٌ.

ما ← هاشم ← إلا ← بسيفك هاشم.

فالشاعرُ يحاولُ عن طريقِ أسلوبِ القصرِ إقناعَ المخاطبِ بأنْ يخرجَ للدفاعِ عن حقِ بني هاشم، وأن يُعيدَ إليهم ملكَهم، ولن يكونَ هذا إلا بسيفِ طلائعِ بنِ رزيك ومؤزاررتِه، فإن كلمتي (غالب، هاشم) شكلتْ حججًا للنتائجِ:(بنصرك غالب، بسيفك هاشم) على الترتيبِ، كما يلاحظُ الباحثُ أن القيمةَ الخبريةَ لم تتغيرْ بوجودِ هذا العاملِ الحجاجيِّ، فلو قال: (يغلب بنصرك الغالب)، لكان المعنى الخَبَرِيَّ نفسه، لكنْ القيمةُ الحجاجيةُ تبدلتْ وتغيرتْ بدخولِ العاملِ الحجاجيِّ (ما ...إلا)؛ لأنَّه حصرَ الإمكانياتِ الحجاجيةَ للملفوظِ.

ويحاول عمارةُ اليمنيُ من خلالِ عاملِ القصرِ مع الاستثناءِ(ما ...إلا) وضعَ المتلقي أمامَ نتيجةٍ واحدةٍ، تحملُه على التسليمِ والاقتناعِ بها، فيقول([32]):

وَمَـا هَـذِهِ الأَعْـمـارَ إلا صـــحـائـفٌ تُـؤرخ وَقْـتًـا ثُـمَّ تُـمْـحَـى وتُـمْـحَـقُ

ونجدُ الشاعرَ في هذا البيتِ يسعى إلى استمالةِ المتلقي وإقناعِه بأنَّ الأعمارَ لا أحدَ يستطيعُ التحكمَ فيها أو يعرفُ ميعادهَا، فوظَّفَ العاملَ الحجاجيَّ (ما ...إلا) لكي يحققَ له القيمَ الفنيةَ التي يريدهُا، ويُضيقُ النتائجَ المستفادةَ من الملفوظِ، ويضعُ المتلقي أمامَ نتيجةٍ واحدةٍ هي لا يستطيعُ أحدٌ التحكمَ في عمرِ البشرِ.

ثانيًا القَصْرُ بالعَطْفِ والْأَدَواتِ:

ويستخدمُ أسامةُ بنُ منقذٍ هذا العاملَ الحجاجيَّ فيقولُ([33]):

ومـا البعيـدُ الـذي تَنـأى الـدّيـار بـه بَـل مَن تـدانى، وعنـه القلـبُ منصـرفُ

يظهرُ دورُ العاملِ الحجاجيِّ(ما ... بل) في توجيهِ الملفوظِ نحوَ وجهةٍ حجاجيةٍ واحدةٍ دونَ سواها، فقد قام بحصرِ الإمكاناتِ الحجاجيةِ في أن البعيدَ الذي نسميه بعيدًا ليس من تَرَكَ ديارَه، بل هو مَن يجلسُ بجوارِنا، والقلبُ منصرفٌ عنه، وأبعدَ جميعَ الحججَ المتعلقةَ بالفراقِ والبعدِ عن الديارِ، وبذلك يقتصرُ هذا العاملُ الحجاجيُّ (ما ...بل) على الحجاجِ لا الإخبارِ. فاستخدامُ الشاعرِ لهذا العاملِ أضافَ إلى المعنى قيمةً دلاليةً تعمقُ تجربتَه، وتخدمُ المعنى العامَ الذي يريدُ استخدامَه في التعبيرِ عن هجرانِ المحبوبةِ له.

كما يستخدمُ ابنُ هاني الأندلسيِّ هذا العاملَ الحجاجيَّ، فيقولُ([34]):

ومَـاَ سَـــارَ في الأَرْضِ العَرِيْضَـــةِ ذِكْرُهُ ولَكِنَّـهُ في مَسْـــلَـكِ الشَّـــمْسِ سَـــالِـكُ

ومَـاَ كُـنْـهُ هَـذَا الـنُّـورِ نُـورُ جَـبِـيـنْـهِ وَلَـكِـنَّ نُـورَ اللهِ فـيْـهِ مُشَـــارِكُ

إن دخولَ العاملَ الحجاجيَّ(لا ... لكن) على البيتينِ السابقينِ أكسبَه طاقةً حجاجيةً كبيرةً، حيثُ استخدمَه الشاعرُ ليضعَ المتلقي أمامَ نتيجةٍ ضمنيةٍ واحدةٍ مفادُها: أنَّ إمامةَ الفاطميينَ ربَّانيةٌ، وأنَّها فريضةٌ إلهيةٌ على كلِّ مسلمٍ، فالإمامُ – عندَ الفاطميينَ– صورةٌ الهيكلِ النورانيِّ، حتى وإن كان له شكلٌ إنسانيٌّ، فإنه هيكلٌ روحانيٌّ، فالمخاطبُ يُريد أن يقنعَ المتلقي بفكرةِ الإمامةِ عبر هذا العاملِ الحجاجيِّ.

ويرى الباحثُ أنَّ العواملَ الحجاجيةَ تعدُّ من أهمِّ الوسائلِ اللُّغويةِ التي يلجأُ إليها الشاعرُ الفاطميُّ في توجيهِ خطابِه نحوَ وجهةٍ حِجَاجيةٍ ما؛ لإقناعِ متلقيه بالنتيجةِ التي يرومُ تحقيقهُا، كما تعملُ تلك العواملُ الحجاجيةُ على تقليصِ الإمكاناتِ الحجاجيةِ للقولِ الواحدِ داخلَ الخطابِ، وتزيدُ من طاقتِه الحجاجيةِ في التوجِه نحوَ نتيجةٍ ما، وجاءتْ في الخطابِ الفاطميِّ عن طريقِ أدواتِ النفيِ، والقصرِ بالنفيِ والاستثناءِ.

المصادر والمراجع والحواشي:

[1] - ابن منظور، لسان العرب، صححه/ أمين محمد عبد الوهاب و محمد الصادق العبيدي،ج3، ط3، بيروت، دار إحياء التراث، 1999م، ص52-53 مادة حجج

[2] - ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق / عبدالسلام هارون، ج2، ط2، بيروت، دار الجيل، 1991م، ص27 مادة حجج

[3] - Perelman, C., & Olbrechts-Tyteca, L. (1971). Traité de l'argumentation. La nouvelle rhétorique. P92

[4] - حافظ إسماعيل علوي، الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسة نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، مدارس وأعلام، ج2، ط1، إربد، الأردن، عالم الكتب الحديث، 2010م، ص182

[5] - أبو بكر العزاوي، التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم (134) ، الدار البيضاء، مطبعة النجاح، 2006م، ص56

[6] - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ط1، الدار البيضاء،المركز الثقافي، 1998، ص226

[7] - محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية ، الخطابة في القرن الأول الهجري نموذجا، ط2،الدار البيضاء - المغرب، أفريقيا الشرق، 2002م، ص71-90 .

[8] - جعفر بن منصور اليمن، كتاب الكشف، تحقيق/ د. مصطفى غالب، ط1، بيروت- لبنان، دار الأندلس، 1984م، هامش رقم 7 ص98

[9] - Oswald, D. (1980). Les échelles argumentatives. Paris, Éd. de Minuit. p10.

[10] - عمارة اليمني، الديوان، شرح وتحقيق/ عبدالرحمن بن يحيي الإرياني وأحمد عبدالرحمن المعلمي، دمشق، دار عكرمة، 2000م، المجلد الثاني، ص648، للاستزادة ينظر: المجلد الأول، ص87 ص95 ص115 ص156، المجلد الثاني، ص631 ص653 ص694

[11] - ابن قلاقس، الديوان، تحقيق / سهام الفريح، مكتبة المعلا، الكويت، 1988م، ص298، للاستزادة ينظر:ص207 ص127 ص110

[12] - ابن هاني الأندلسي، الديوان، تحقيق/ كرم البستاني،، لبنان، دار بيروت، 1980م، ص139، وللاستزادة ينظر: عمارة اليمني، المجلد الثاني، ص660، ابن قلاقس، ص272

[13] - القاضي النعمان، دعائم الإسلام، تحقيق/ آصف علي أصغر فيضي، ج1، القاهرة، دار المعارف، 1963م، ص52

[14] - حمو النقاري، التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، ط1، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، 2006، ص63

[15] - هاجر مذقن، مصطلحات حجاجية، مجلة مقاليد، جامعة ورقلة- الجزائر، العدد الأول، 2011م، ص37

[16] - ينظر: أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج ط1، الدار البيضاء - المغرب، العمدة في الطبع، 2006م، ص58

[17] - ابن حيوس، الديوان، تحقيق/ خليل مراد بك، بيروت، دار صادر، 1984م.، ص529

[18] - أسامة بن منقذ، الديوان، تحقيق/ أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، القاهرة، دار الكتب المصرية، 1953م، ص224، للاستزادة ينظر: ابن هاني الأندلسي، ص247، ابن قلاقس، ص599، عمارة اليمني، المجلد الثاني، ص521

[19] - أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، مرجع سابق، ص73

[20] - أسامة بن منقذ، مصدر سابق، ص266

[21] - عمارة اليمني، مصدر سابق، ص57، وللاستزادة ينظر: ابن هاني الأندلسي، مصدر سابق، ص184 ص 293 ص319 ص340، ابن حيوس، مصدر سابق، ص85 ص382-383 ، أسامة بن منقذ، ص265-266،

[22] - عبدالهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، ط1، بيروت-لبنان، دار الكتاب الجديد، 2004م، ص514

[23] - المؤيد في الدين، تحقيق/ محمد كامل حسين، بيروت، دار المنتظر، 1996م ، ص249

[24] - المهذب بن الزبير، شعر المهذب بن الزبير، تحقيق/ محمد عبد الحميد سالم، القاهرة، هجر للطباعة، 1988م، ص233، وللاستزادة ينظر: تميم بن المعز لدين الله الفاطمي، الديوان، تحقيق / أحمد يوسف نجاتي وآخرون، القاهرة، دار الكتب المصرية، 1957م، ص148

[25] - عزّ الدين الناجح ، العوامل الحجاجية في اللغة العربية، ط1، تونس، صفاقس، مكتبة علاء الدين للتوزيع، 2011م، ص21

[26] - ألطاف إسماعيل أحمد الشامي، العوامل الحجاجية في شعر البردوني(النفي أنموذجًا)، منشور في مجلة كلية العلوم الإسلامية جامعة بغداد ، العدد(43) لسنة (2015م) ، 423/1

[27] - عز الدين الناجح ، العوامل الحجاجية في اللغة العربية، مرجع سابق ، ص47

[28] - تميم بن المعز، مصدر سابق، ص 161

[29] - ابن هاني الأندلسي، مصدر سابق، ص276

[30] - عبدالهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص519-520

[31] - العماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر(قسم شعراء مصر)، نشره/ أحمد أمين وآخرون،ج1، القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، 2005م، ص191

[32] - عمارة اليمني، مصدر سابق، المجلد الثاني، ص709

[33] - أسامة بن منقذ، مصدر سابق، ص135

[34] - ابن هاني الأندلسي، مصدر سابق، ص243